العـــولمـــــة و نوعيـــــة الحيـــــاة

أ.د. يحيـــي الرخـــاوي – الطـــب النفســـي – القاهـــرة / مصـــر
yehia rakhawy@hotmail.com

كثر الحديث عن العولمة, وعن العالم الذي أصبح قرية صغيرة, وعن ثورة الاتصالات التي سمحت للإنسان المعاصر بأكبر قدر من الحرية(حرية ماذا ؟) عبر التاريخ, وعن الشفافية التي جعلت كل شئ متاحا لكل أحد, وعن النظام العالمي الجديد الذي به حلت نهاية التاريخ ! ! !, عن صراع الحضارات الذي لابد بالتالي أن ينتهي لصالح الحضارة المنتصرة,[علي فرض أن الحضارة الأمريكية قد انتصرت جدا, إذا كانت قد وجدت أصلا ! !].

ويبدو أن كل ذلك قد شغلنا عن الأهم والأولى بالنظر, وهو محاولة التساؤل بعد كل هذا, ومع كل هذا عن: إلى أين . . ؟(و) إذن ماذا ؟ .

ونحن إذ نتساءل عن ذلك لا نعترض ولا نتحفظ ولا نضع شروطا لاستفادتنا من إنجازات العولمة, لكننا نحاول أن نرتقي بوعينا وفعلنا إلى مسئوليتنا عن وجودنا, وعن نوعيته هذا إذا كان لنا أن نختار ما فضلنا به الله, وهو الوعي بما نحن, ومن ثم الإسهام في اختيار ما يمكن أن نكونه.

لقد الهي بيل جيتس كتابه الطريق يمتد قدما(1995) The Road Ahead المترجم باسم المعلوماتية بعد الإنترنت(في سلسلة عالم المعرفة ترجمه عبد السلام رضوان مارس1998) بأمل واعد يقول. . . ويمكننا بالتأكيد أن نواصل توفير برمجيات أفضل وأفضل من أجل جعل الكمبيوتر الشخصي أداة تمكين معممة في كل مكان. . . ولم يقل, ولا يبدو انه شغله أن يقول لنا, أداة تمكين من ماذا ؟ ولا أداة تمكين للوصول إلى أين . . ؟ اللهم إلا إشارة عابرة لإنشاء شركات جديدة,, وعلوم جديدة تحقق ما يتصوره عن تحسين نوع الحياة.

فهل يوجد تعريف إجرائي لنوعية الحياة التي نريد أن نحسنها؟ أهي إطالة العمر, أم مجتمع الرفاهية, أم أوهام الحريـة, أم تعميـق الـوعي والامتداد الإيماني, أم مزيد من تأنيس الإنسان؟.

كذلك أنهي الكاتبان هانز بيترمان, وهارالد شـومان كتابهمـا فـخ العولمة(المترجم أيضا في نفس السلسلة أكتوبر1998 ترجمه د. عـدنان عباس علي برص عشرة أفكار رائعة لإنقاذ أوروبا من غبـاء العولمـة الامريكية), وليس لإنقاذ الجنس البشري من الانقراض المحتمل, وقد بدت لي هذه الأفكار الأوروبية التي لوح بها المؤلفان بدت لي أفكـارا مثاليـة خاصة بأوروبا جدا, امله, وقصيرة الأجل.

كذلك تتبعت مقدرا اجتهادات ا. د. زقزوق, وأيضا د. محمـد رؤوف حامد(أهرام الجمعة 7 مايو1999), في محاولة التوفيق بين الإسلام العولمـة من جهة, وبين الوطنية العولمة من جهة أخري, إلا أنني شعرت بعد الامتنان لهما أن الأمر قد يحتاج إلى خطوة أبعد مما ذهبا إليه مشكورين.

وسوف أتجنب ألا اركز علي فتح ملف الفروق بين ثقافـة الشـرق (المتخاف أو الوجداني أو الإشراقي) وثقافة الغرب والشـمال(المتقـدم, البالغ الوفرة, المحقق للرفاهية) فهو ملف مفتوح دائما, والنقاش فيه مغلوط عادة,(مثلا بالمعايرة أو التشفي بذكر مذبحة كولورادو الأخيرة على أنها نذير تدهور الغرب كله لا محالة.. الخ).

كذلك لن أحاول أن أعدد فضائل الأخلاق(المنقرضة) التي كنا نتمتع بها, أو التي يمكن أن نفخر بها, أو التي ينبغي أن نتصف بها(راجع مقال فهمي هويدي11/5/1999, فمثل هذه الدعوات لا جدال حول وجاهتها, من حيث أنه على الإنسان أن يكون على خلق عظيم, سواء بإحياء تعاليم دينه أو باتباع مواثيق حقوق الإنسان, إلا أن المطلوب ليس مباريـات الفخـر والهجاء, ولا حتى محاولات التوفيق والتزام قدر من الموضوعية, وإنما المطلوب هو محاولة التساؤل المبدئي:

هل توجد فروق جوهرية فيما يتعلق بنوعية الحياة التي يلوحون لنا بها, وبين نوعيه الحياة التي تصلح لنا من وحي اختلافنا التاريخي والآنـي, والتي قد يكونون هم أحوج ما يكونون إليها(إلينا) إذا نجحنا في إثبـات جودة وصلاحية ما ندعو إليه ونحققه؟ أم إن العولمة قـد أزالـت هـذه الفروق بالمرة؟

يقول بطرس غالي في شأن العولمة حاله كونه سـكرتيرا للأمـم المتحدة: ليست هناك عولمة واحدة, بل ثمة عولمات عديدة, فعلى سـبيل المثال, هناك عولمة في مجال المعلومات, والمخدرات, والأوبئة والبيئة, وطبعا, وقبل هذا وذاك, في مجال المال أيضا ثم يتكلم غالي عن الجرائم العابرة للحدود كما يتكلم عن الأموال العابرة للحدود, لكنه ربما من باب الحذر لا من قبيل الغفلة لم يشر إلى عولمة التـدين, عولمـة التوحيـد, والأخلاق الحميدة العابرة للحدود, والوجود الإيماني العابر للحدود.

وقد تناول ديستويفسكي حضور الله سبحانه فـي وعـي الأخـوة كارامازوف واحدا واحدا ليعلن بطريق مباشر أو غير مباشـر أن هـذا المتغير حضور الله في الوعي هو أساسي في بناء الشخصية, ومن ثـم في تحديد نوعية الحياة, بحضورها الآني في الفعل اليومي, يستوي فـي ذلك تسليم إيمان الملحد بأنه.. إذا فقدت الإنسانية هذا الاعتقاد بـالخلود فسرعان ما ستفيض جميع ينابيع الحب..(و) أكثر من ذلك أنه لن يبقي شيء, يعد منافيا للأخلاق, وسيكون كل شئ مباحا, أو رأى ديمتري أنه: أنك إذا أنكرت الله تنتهي إلى زيادة سعر اللحم.. الخ.

كذلك ظل نجيب محفوظ يلح حول هذه الفضـية بكـل إصـرار ومثابرة من أول زعبلاوي حتى الحرافيش إلى أصداء السيرة, مـارين بالطريق دون استبعاد أولاد حارتنا, ومن أنصت إلى عمر الحمزاوي في الشحاذ وهو يستمع لذلك الصوت يعاتبه في نهاية الرواية إن كنت تريدني,

فلم هجرتني, لابد أن يدرك أين وضع محفوظ هذه القضية محـورا فـي تحديد نوعية الوجود البشري.

وكل ذلك وغيره خليق بأن يلح علينا بضرورة اكتشاف وتأكيد حقيقة جوهرية في الوجود البشري تقول: إن وجود الله هـو ضـرورة حيويـة ليكون البشر بشرا, وان هذه القضية يستحيل أن تكـون مجـرد مسـألة منطقية شبه عقلية, أو حتى أن تختزل إلى استسلام ديني غيبي.

ولن استطرد بعد ذلك في شرح هذه المسألة حتى لا أخـرج عـن هدف المقال الأصلي الذي يقول:

إننا ونحن نتناول هذا التمادي المطرد فيما هو أدوات التمكين التي تتيحها وسائل الحياة المعولمة, لابد أن نضع هذا المتغير الأساسي في حسـباننا, وإلا فسوف نستدرج إلى التسليم ضمنا بموقع العقيدة والإيمان كإضـافات اختيارية Options (مثل كماليات السيارات) يمكن أن يتحلى بها من يشاء بعض الوقت تحت زعم أن الدين لله والوطن للجميع, أو أن مـا لقيصـر لقيصر وما لله لله وكلام من هذا, مما يخدعنا تحت وهم تسامح كـاذب لا يصل إلى عمق حقيقة التواصل البشري تحت مظلة الله.. سبحانه وتعالي طوال الوقت؟.

إنني ازعم أن هذه المسألة وجود الله سبحانه كمتغير فاعـل طـول الوقت هي الجوهر الذي ينبغي أن نعتنـي باسـتعمال الأدوات الأحـدث لبرمجته بطريقه تميزنا نحن, وفي نفس الوقت قد تضيف إلى احتياجـاتهم ما يمكن أن ينقذهم من أوهامهم حول الاكتفاء بالحرص علـي الرفاهيـة والتنافس الكمي المتنامي, والاستغناء عن الله بإثارة الفنية في إبداعهم؟ إن الحياة البشرية تختلف نوعيا إذا كان الله موجودا عنها إذا ما أنكرنـاه أو أبعدناه أو حددنا أوقات لقائه أثناء العبادات أو أيام الآحاد أو الجمع! ولعل هذا, في رأيي, هو الفرق بين الإسلام الموقف الوجودي, وبـين الإسـلام المغترب, أو المختزل, أو الإسلام المستعمل من الظاهر لتولي سلطه, أو إعلان وصاية, وكذلك بين الإسلام الفطرة وبين التشويهات التـي لحقـت بممارسات الإسلام المؤسسة, والأديان الأخرى التي تمـارس باعتبارهـا إضافة طيبة للحياة لا مانع منها بعض الوقت!!!

إن التاريخ الحيوي للتطور يعلمنا أن أي نوع من الأحياء ينقـرض إذا تمادي عدم التناسب بين مجالات وجوده, ونوعيات قدراته, وطبيعـة فطرته, وأيضا ينقرض نتيجة عدم التناسب بـين احتياجاتـه ومعطيـات الوسط المحيط, هكذا تعلمنا دروس انقراض الديناصور مثلا حين تمـادي عدم التناسب بين ضخامة جسده وصغر حجم مخه وسرعة حركته الـخ, وما تعرضه علينا الآن أدوات العولمة يكاد يضعنا في موقـف مشـابه إذ نتهدد حتما بدرجة من عدم التناسب بين سرعة الحصول على المعلومات وبين إمكانية استيعابها, وأيضا بعدم التناسب بين غلبة الحسابات الظاهرة على الحس الإيماني التواصلي الأعمق.

فهل عندنا أي موقف أو تاريخ أو اختلاف يمكن أن يسهم في تحقيق إعادة التوازن المطلوب هذا؟

الإجابة عندي بكل عناد(أو غفلة) نعم.

إن الحياة تختلف كل الاختلاف إذا كان الله موجودا عنها إن لم يكن موجودا.

إنني أتصور أن المسألة كالآتي:

هناك نوعان أساسيان من الوجود البشري يمكن أن نتحقق منهما عند المتدين(أو من يدعي ذلك), وأيضا عند غير المتدين(أو الذي يتصور ذلك):

النوع الأول هو النوع الذي يقف شامخا فخورا لينتهي عند أعلى نقطة فوق هامة الإنسان وقد زانه عقله ولمعته أدواته(وهو ما يمثله أغلب ما يسمي الحضارة الغربية الشمالية التكنولوجية, الخ).

والنوع الثاني هو الذي تمثله الحضارات الإيمانية التوحيدية التواصلية النابضة الممتدة إلى ما لا يحد من وجودها عقل ظاهر, أو وصاية الـه محدودة.

ثم إن هذين النوعين من الوجود يختلفان اختلافا جوهريا, بحيـث تصطبغ الحياة بطعم مغاير عند من يعيش هذا النوع أو ذاك, على الرغم من تشابه الأدوات والإمكانات المتاحة.

وأتصور أن وجودنا نحن المصريين مثلا الممتد من آلاف السنين مشدودا بالخلود دائرا حول التوحيد, مازال يمثل أو يمكن أن يمثل النوع الأول, كذلك أتصور أن كل المؤمنين من كل الأديان, ذلك الإيمان الفطري الأولي الذي يتجلى في ممارسات دينية مختلفة, متضفرة, وضامة في آن, ينتمون أيضا إلى هذا النوع الأول من الوجود, أما النوع الثاني: فهو ذلك النوع الذي تمثله الحضارة الشمالية الغربية قبل إفاقتها مؤخرا وهو نوع جميل البريق وافر الرفاهية كثير المواثيق المكتوبة رائع الإنجاز رضي بواقعية آنية أعفته من الإفراج عن وعيه الأعمق الممتد عبر البشر وعبر الأكوان.

إن حقيقة وجود الله في كل مكان وزمان هي حقيقة لا تتجلى فعلا يوميا إلا إذا ملأت الوعي البشري طول الوقت, وهي حقيقة قد أثبتتها رغم أنها لا تحتاج إلى إثبات اختبارات التاريخ, لا حجج العقل(راجع العودة الدينية التلقائية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي).

فهل يمكن أن يظل الإنسان إنسانا إذا هو تمادي في صياغة حياته المعاصرة بمزيد من التقنيات والإمكانات الجديدة, وفي نفس الوقت راح يهمش هذه الحقيقة أن الله موجود تهميشا يهدد بفقد التوازن فالانقراض, أم انه قد آن الأوان لإفاقة شاملة في الوقت المناسب لكي نعد برمجياتنا ونحن نضع هذا المتغير الرائع(أن الله موجود) في الحساب؟

إنني أتصور أن التمادي في تقديس الحضارة الكتابية أدى إلى إهمال الحضارة الشفاهية حتى أصبح احترام ميثاق حقوق الإنسان مثلا أهم من احترام الإنسان نفسه, وأيضا اصبح الالتزام بمواد القوانين المكتوبة(بما في ذلك حذق التحايل عليها) أهم من الالتزام بما كتبت هذه القوانين من أجله, ووجود الله سبحانه وتعالي كحقيقة يومية طول الوقت هو الذي يمكن أن يقرب بين ما هو مكتوب وما هو معاش بل الإنسان على نفسه بصير, ولو ألقى معاذيره.

والتحدي الجديد لا يكمن فقط في إحـلال حضـارة الاتصـالات والتواصل والشفاهية محل الحضارة الكتابية, وإنما هو يهدد بعدم تناسب جديد بين كم المعلومات المتاحة وإمكانات البيولوجيا البشرية لاستيعابها لما يفيدها, وهنا نتهدد بتضخم الوسيلة حتى تختفي الغايات الأساسية من الوجود البشري بين ثنياتها العملاقة.

ليس عندي اقتراحات محددة, ولا أشعر بأي اعتراض علي أدوات نحن كبشر ينبغي أن نفخر باختراعها وتملك ناصيتها, فقط أنبه إلـى أن علينا أن نتحمل مسؤولية الحصول عليها, أولا علي مستوانا المحدود, ثم على مستوي العالم.

صحيح أن مثل هذه الآراء, والمقالات والآراء, والاجتهادات لـن تقدم ولن تؤخر مهما صدق محتواها, فأصـحابها لا يملكـون تسـخير أدوات تمكين كافية لنشرها وتسويقها(!!), إذن فنحن أحوج ما نكون إلى برامج, ومبرمجين يضعون ماهية الإنسان الممتد في الاعتبار, فيصيغون لنا أدوات اختبار تصنف إنجازاتنا الفردية والجماعية لنعرف أولا بـأول إن كانت تسير في الاتجاه الصحيح الذي يعمق إنسانية الإنسان أم إنهـا تتعملق في ذاتها لذاتها كوسيلة بلا هدف واضح أو لهدف هدام؟

إنني أتصور أن هذه البرامج ربما تشبه برامج كشـف فيروسـات الكمبيوتر, التي تختبر أية تداخلات غريبة يمكن أن تضرب المحتـوي, أو العتاد أو البرامج الصالحة, والشاطر هو الذي يختبر كل ما يعمل وما يخزن وما يبرمج أولا بأول بهذا البرنامج الكاشف للفيروس ثـم يبطـل مفعوله ببرنامج مضاد, وعلى هذا القياس دعوني آمل أن نصنع برمجيات

تقيس إنجازنا اليومي فردا فردا, فتجيب لكل واحد منا عن أسئلة بسيطة يعتبر نسيانها هو آفة اغترابه وهلاكه, أسئلة تحدد له إن كان إنجازه هذا اليوم(سواء اشتري فيه عربة جديدة, أم أصدر قرارا برفع ثمن دواء مهم في شركة أدوية لتكسب شركته أكثر, أم شاهد غروب الشمس, أم ساهم في إطعام جائع لا يعرف جنسيته أو دينه), يجيبه هذا البرنامج قبل أن ينام كل ليلة, إن كان هذا الذي أنجزه طول يومه أولا بأول قد زاده امتدادا في الكون(إيمانا) أو قربا من آخر(حبا) أو عمقا في الوعي(إبداعا), أم أن العكس هو الذي حدث.

صحيح انه لم يعد هناك مجال لهبوط الوحي علي نبي جديد علـي الرغم من ظهور ديانات شاذة ومريبة كل يوم في كل مكان يسمح بـذلك, لكن الأصح أننا استبعدنا الأديان القائمة بالجمود أو بالإنكـار أن تصـبح فعلا يوميا نحدد به ما حاولت في هذا المقال أن أبينه من اختلاف نوعيـة الحياة إذا انتهت عنده هامة الإنسان الفرد أو الإنسـان النـوع, عنهـا إذا امتدت بلا حدود عبر الأكوان سعيا إلى وجه الله طول الوقت.

إن استبعاد حضور الله سبحانه في وعي البشر طول الوقـت لـيس فقط خطيئة وخسارة من أنكروه تعالى, أو مـن همشـوه, بـل إن هـذا الاستبعاد ساهمت فيه بعض الممارسات الدينية السطحية, حتى لو كانـت حسنه النية, فحتى الدعاء, الذي نبهنا رب العالمين انه من حقنا عليه طول الوقت في كل مكان, كدنا نقصره علي أماكن مقدسة بذاتها(أنـا ذاهـب للعمرة وسوف أدعو لك هناك), وكأننا نشير بذلك ضمنا إلى اغترابنا عن حقيقة دوام حضور الله سبحانه في كل مكان, وكأننا نسينا كيـف يكـون العبد أقرب إلى ربه وهو ساجد هنا والآن, وكأننا نسينا أيـن يقـع حبـل الوريد.

ولحين عودة تفصيلية نذكر مرة أخرى أن المسـألة ليسـت دعـوة مثالية أخلاقية, ولا هي أسلمة أو دينية العولمة, ولكنها تنبيـه ضـروري عملي إلى احتمال يقول: إننا في حديثنا عن العولمة نركز على الوسـائل دون الغايات منها, ونهتم بسرعة وكم الإنجاز على حساب نوع وامتداد الوجود. وهذا هو موضوع الحديث اللاحق عن: عولمة الأخلاق ومنظومة القيم.

- العولمة الإغراق الثقافي

من حقنا, بل من واجبنا أن نؤكد ضرورة البحث عـن هويـة, وأن نخاف من الإغراق الثقافي ومن التبعية الاقتصادية, إلى آخر مثل ذلـك. ويجرنا هذا بداهة إلى الحديث عن خلاف جوهري بيننـا وبيـنهم, مـرة فخورين بتاريخنا المجيد, وأخرى متعصبين لديننا الفريد, وثالثة واهمـين في قدرتنا الكامنة التي تنتظر إشارة الانطلاق لنسوي الأهوال.

وكل هذا تصبير مفهوم, وحكي مسل, لكن أن نتوقف عند ذلـك أو نروح نكرره راضين عن أنفسنا, حاكمين علي غيرنـا, متكلمـين عـن مستقبل لا نساهم- الآن- في صنعه, مرددين- دون حياء غالبا- أنه باق كذا ساعة على قرن قادم, في نفس الوقت الذي نتقدم فيه بسـرعة غيـر مسبوقة إلى قرون سحيقة مضت, أن يحدث كل ذلك ونحن في غفلة عنه قليلا أو كثيرا, فهذا هو الخطر المحيق.

إن خطر البكاء على الأطلال ومحاولة استنساخ الماضي لا يقل عن خطر الحديث عن المستقبل دون الإسهام في صنعه(الآن).

إن ثمة أساسية تحتاج منا إلى إجابات مناسبة قبل كل هذا, أو مع كل هذا أسئلة مثل:

هل حقا نحن غيرهم؟(هنا والآن)
وهل من الضروري أن نكون غيرهم؟(لماذا؟, وكيف؟)
وهل نستطيع أن نكون غيرهم لو أردنا(أيضا: لماذا وكيف؟)
وهل نحن قادرون؟ وهل المسألة تستاهل؟ وهل نحن نتساهل؟

إلى آخر هذه الأسئلة التي كانت وراء كتابتي عن العولمة ونوعية الحياة, كان هدفي منه باختصار هو تأكيد حقيقتين, الأولى: أننـا لا نملـك أن نقاوم الوسائل الأحدث في الحياة المعاصرة ليس هذا من صـالحنا, ولا هو في مقدورنا حتى لو أردنا, والثانية: أن الاستسلام لنفس الوسيلة(أو قل: استعمالها) لا يلزمنا بالضرورة بالتوجه إلى نفس الغاية, علي الرغم من صعوبة فصل الوسيلة عن هدفها الأصلي, ربما قياسا علي اسـتحالة فصل الشكل عن المضمون في العمل أو النقد الأدبي.

إننا في حديثنا عن العولمة نركز علي الوسائل دون الغايات منها, ونهتم بسرعة وكم الإنجاز علي حساب النوع وامتداد الوجود

نعود إلى اصل الحكاية: فيم الاختلاف- إن وجد- بيننا وبيـنهم؟ وهل من سبيل إلى اللحاق بهم؟ أم إن الطريق الأصوب هـو محاولـة لقائهم من منطلقنا إلى أمر مشترك يهمنا معا؟ وهل مجرد إتقان وسائلهم مع تأكيد هوامش الاختلاف هو كاف لنيل شرف الإسـهام الحضـاري المنتظر والمشترك أم إن ثمة أساسيات جوهرية غائبـة عـن أغلـبهم, ومغيبة عن أغلبنا- هي التي تحدد المال, لنا ولهم, وقد تنقذنا جميعا من احتمال الانقراض؟

إن المحاولات التو فيقيه والتبريرية التي تتناول مسـألة اختلافنـا عنهم- على صدقها واجتهادها- يمكن أن توجز في المقولات التالية:

أولا: هذه الحضارة- حضارتهم- نحن أصحاب الفضل فيها(مثلا: فضل ابن رشد وإضافات الأندلس).

ثانيا: هذه العلوم- علومهم- لها جذورها عندنا(حتى في القرآن الكريم: وهات يا تعسف في التفسير).

ثالثا: هذه الإنجازات(التكنولوجية مثلا) نحن نستطيع تقليدها(شبه رطانة مدنية توفيقية, أو كنظام حضارة = حضارة كومباتيبل COMPATIBLE

رابعا: هذه المعلومات المستوردة يمكن أن نصيغها بالعربية(تعريف الطب مثلا, وكان الطب أعجمي الجنسية ولا يحتاج منا إلا إلى ترجمة!!)

هذا, ناهيك عن محاولات عابثة تكاد تمسخ كلا من الإسلام والعلم معا وهي التي تسمي أحيانا أسلمة العلوم(فثمة زعم بوجـود جغرافيـا إسلامية- وليس جغرافية العالم الإسلامي- وطبيعة إسـلامية وكيميـاء إسلامية, وطب نفسي إسلامي. الخ.

وأنا لا أنكر ما وراء كل هذا من حماس وحسن نية وإخلاص جهد إلا أنني أتصور أنه لابد أن يحرمنا ذلك من فوائـد الشـعور بـالنقص والوعي بحجم قصورنا الحقيقي.

فإذا كان كل هذا التوفيق(والتلفيق) لا يفيد, بل قد يخدعنا ونحـن نتصور أننا نتميز في حين أننا لا نفعل شيئا إلا أننا نستبدل بغياب معالم هويتنا الحصول على هوية مزورة غير متقنة التزوير.

إننا نتعرف على ما هو نحن ليس من محفوظات المدرسة أو نتائج الأبحاث أو نشرات الأخبار إنما من كل ما نأتي وما نذر, ما نعلم ومـا نحس, ما نمارس وما نبدع, ونحصل على هذه المعرفة حتى ونحن نيام. إن مصادر التعرف على ماهية الإنسان ليست هي العلم وحده, وليسـت المناقشات الفلسفية المعقلنة الرصينة فحسب, وليسـت التلفيـق: قـص ولصق(شويه تكنولوجيا علي شويه دين علي شويه معلومات علي شويه ديمقراطية- ملحوظة: شويه كلمة عربية= القليل من الكثير, الوسـيط), إنما نتعرف علي ماهية الإنسان من واقع الممارسة التي تنتج نوعية من الحياة يختص بها الإنسان حين يتصور انه أرقي المخلوقات المعروفـة, مؤتنسا بإقرار ذلك من رب العالمين ولقد كرمنا بني آدم كرمنا بمـاذا؟ بمزيد من التكنولوجيا؟ بمزيد مـن الاسـتحواذ الاغترابـي؟ بمجتمـع الرفاهية؟ بفن جميل لكنه بديل عن الحياة الجميلة؟ بجنـة خصوصـية نطرد منها الآخر بكل إصرار؟

نعم كرمنا بماذا؟

إن الإجابة عن هذا السؤال فرض عين على كل حي, إذا قـام بـه البعض لا يغني عن الكل, حتى لو كان هذا البعض هو الرئيس كلينتـون شخصيا, هداه الله وغفر له, وبالتالي فان على كل فرد أن يجتهد للإجابـة إذا كان يريد أن يبرئ ذمته من الورطة التي تورط فيها إذ حمـل أمانـة الوعي وشرف الاختيار.

من هنا تبدأ نقطة الانطلاق للحديث عن نوعية الحياة, واحتمـال أن يكون منطلقا إليها بالممارسة الآنية والواعدة مختلفا عما يلوحون لنا بـه, فلا نسارع بالتنافس على القسم بأغلظ الأيمان, إننـا ديمقراطيـون جـدا ومحافظون على البيئة100% وعلى حقوق الإنسـان بالمواصـفات التـي يحددها ويتابعها الراعي الأمريكي جدا.. الخ, إن علينا أن نبحـث عـن مواصفات بديلة- هي موجودة حتما بدليل أننا مازلنا بشـرا رغـم كـل شيء- مواصفات يمكن أن تحقق الحرية وليس فقط الديمقراطية, أو تحقق العدل وليس فقط الحقوق المكتوبة, أو أن تصالحنا على الطبيعة لنظل في حوار دائم معها, وليس فقط خفراء للحفاظ على ما نجتزئه منها ونسـميه البيئة. إن قضايا العدل والحرية والعلاقة بالطبيعة وبالامتداد في الكـون بالإيمان لم تحسم بانهيار الاتحاد السوفيتي, ولا بالسماح بانتقال الأمـوال, ولا بإغراق العقول بفصاصات المعلومات الصادرة عن تثاؤبات الـوعي البشري المصنوع.

فهل ثمة سبيل نساهم به في إضافة متواضعة يمكن أن تنير بعـض هذه الجوانب الأساسية؟

إن تأكيد حقنا- بل واجبنا- في اكتشاف نوعية الحياة يحمل في طياته التكليف بالبحث عن ماهية الإنسان في حضوره المتطور أبدا فالدعوة ليست مقصورة علي التنبيه إلى حياة روحية(ضد المادية) أو حياة بشرية راقيـة (ضد الحيوانية) أو حياة ديمقراطية أو نقابية(ضد الشـمولية والتسـلطية), وإنما هي دعوة للإسهام في اكتشاف كيف خلقنا الله, وكيف اخترقنا التاريخ البيولوجي العريق حتى صرنا بشرا هكذا؟ هكذا ماذا؟.

يبدو أن سيدنا احمد البدوي كان يحاول الإجابة علي هـذا السـؤال وهو يدعو ربه دعوته المفضلة: اللهم أرني الأمور كما هي, وهذا أيضـا هو ما بلغني من تكرار الابتهال من صوفي لا أعرف له اسما محددا وهو يذكر الله بابتهال لم أفهمه لأول وهلة, وهو يردد: ربي كما خلقتني, ربـي كما خلقتني, ربي كما خلقتني لقد خلقنا الله في أحسن تقويم ثم سمح لمن لم يرع هذا التقويم أن يرتد أسفل سافلين حتى لو كان هو قائد النظام العالمي الجديد, إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فواجبنا الآن, ولـيس بعـد. أن نعرف كيف نستعمل أدوات العولمة الجديدة لنكون من هؤلاء المسـتثنين الذين يحاولون أن يعرفوا كيف يحافظون على أحسن التقويم الذي خلقوا عليه.

إنها دعوة للجهاد الأكبر لنتعرف على كيف خلقنا الله وعندنا فرصة أكبر باستعمال الوسائل الحديثة, واكرر: التي لا تشمل تشويه الدين بالعلم, ولا اختزال العلم إلى قشور التفاسير الدينية.

إننا حين نتصور أننا نختلف عنهم لابد أن نفهم أن ذلك الاختلاف- إن صح- يصب عائد ممارسته الإيجابية في كل من هو إنسان أينما كان إن ميزة الغرب الحقيقية ليست فيما أنجز, بقدر ما هي في قدرته على نقد نفسه باستمرار وعلى المراجعة وعلى إعادة المراجعة الكرة تلو الكرة.

إن خطورة العولمة ليست في أدواتها ولا في منهجها, وإنما تأتى الخطورة من احتمال أن تتمادى القوى الأغبى في اسـتعمالها لتحقيـق مكاسـب جزئيه لفئة, أو فئات خاصة, على حساب تشويه إنسانية الإنسان الـذي تمثله الأغلبية الساحقة من التابعين أو الذاهلين أو الجوعي فتكون فتنة لا تصيب الذين عولمونا خاصة.

فكيف نتقي ذلك؟ وهل ثمة مجال بظروفنـا الصـعبة وإمكانياتنـا المتواضعة أن نساهم في أن نكـون كمـا خلقنـا الله لا كمـا يرسـمنا الأمريكان, ولا كما يرسمون أنفسهم حتى؟

وهل يمكن أن نعيد النظر فيما فعلناه بـدينا, وأدياننـا, وعقولنـا, ووجودنا, من منطلق آخر, منطلق ينقذنا فينقذهم, يضيف إلينا فيرحمهم, وذلك حين نعطي لوسائل المعرفة الأخرى حقا في صـياغة حياتنـا, أو حين نتعمق في التصالح مع الطبيعة, وليس فقط في الحفاظ على البيئـة لتطيل أعمارنا بنفس المواصفات, إننا نسينا معني الحوار مع الطبيعـة, حتى العبادات في الإسلام التي ارتبطت بالطبيعة وإيقاعها الحيوي طوال الوقت, رحنا نتنازل عنها خجلا لحساب علم الفلك وحسابات الحاسوب, وكان توثيق العلاقة بالطبيعة طوال الوقت, وبشكل مباشر, لا قيمة له في مقابل تقديس علوم لم تجعل لتنظيم العبادات أصلا.

إن واجبنا ونحن نعيش أزمة التحدي المعاصر أن نجـدد إيماننـا باستلهامات إبداعية وليس أن نجمد تديننا بتفسـيرات انتهـي عمرهـا الافتراضي.

إن مقولة أن الله موجود هي محور التوحيد أصل الأديـان وهـي مقولة إذا حضرت في الوعي تجلت في كل نبض الحياة اليومية, وحتى الأديان التي لا تعلن مثل هذه المقولة مباشـرة(مثـل البوذيـة) إنمـا تحضرها ممارسة والتزاما, ولأن الإسلام هو دين شديد البساطة(قبـل التشويه والاغتراب) شديد الغور في نفس الوقت, فإن هذه المقولة تتبدى للمسلم الحقيقي بشكل حاضر طوال الوقت, وحين نقدت مقولة أن الدين لله والوطن للجميع وكذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله كنت أعني أن الدين لله, والوطن لله, والروح لله, والمادة لله, ليس بمعني الدروشة ولا تحفيزا لكسل عقلي أو اعتماد سلبي, بل تأكيدا علي حضور هذه المقولـة فـي الوعي البشري المنتمي إليها طوال الوقـت, إن تغريـب حضـور الله سبحانه عن الوعي البشري في الفعل اليومي يجعل الممارسـة الدينيـة وكأنها أمر ثانوي لاختياري لمن شاء,(وأحيانا كيف شاء المهم أننـي لا أوذي أحدا!!!), بل أن الجماعات الدينية وهي تنادي أن الإسـلام ديـن ودولة وفن, ونوعية حياة, ونبض خلايا, وأنفاس طبيعية, وكـل مـاهو ربي كما خلقتني.

فهل تمنعنا أدوات العولمة من مواصلة هـذا الجهـاد الأكبـر؟ أم تسهله علينا؟.

حاولت أن أقول أنها يمكن- إذا أردنا واجتهدنا- أن تسهله علينا.

فهل نحن أهل لذلك؟ وهم: أليسوا في حاجة إلى بعض ذلك؟.

إنني أتصور أن فرصتنا أكبر بفضل الفقر النسبي والإيمان المتبقـي دون وصاية الجمود والغرور, فهل نحاول؟ لعلنا نجد إجابات تنفعنا فتنفعهم.

وهل نملك غير ذلك ؟.

Arabpsynet Psychiatrist Guide

Send your Scientific CV via CV FORM
www.arabpsynet.com/cv/CV.htm

Arabpsynet Psychologist Guide

Send your Scientific CV via CV FORM
www.arabpsynet.com/cv/CV.htm